دور البابـويـة والقرصنـة فـي شـل حـركة التجارة الشرقية في البحر الأبيض المتوسط ١٢٩١ ــ ١٤٩٨م

د. إيلاف عاصم مصطفى

الجامعة المستنصرية/ كلية التربية الأساسية

المقدمة :

كان دور البابوية قوياً في القرن الثالث عشر والرابع عشر في ضرب حركة التجارة الشرقية ولاسيما في البحر الابيض المتوسط ، حيث كانت تصدر القرارات البابوية في تحريم المتاجرة مع العرب المسلمين ، وبالطبع كان الغرض منها اغراض صليبية ومصالح تجارية اكثر منها اغراض دينية .

ويحاول الباحث هنا إن يبين تاريخ البابوية وكيفية تدرجهم للتسلق إلى السلطة واهم البابوات الذين اثروا في تاريخ البابوية ودعم مكانتها الدينية لا بل المشاركة والتحكم بالقرارات السياسية ، فحاول الباحث ان يبين الدور الواضح والبارز الذي لعبه البابوات في شن المقاطعات ولاسيما الاقتصادية منها في سبيل ضرب وشل حركة التجارة وبالتالي محاربة التجار العرب المسلمين ، ومن ثم شل الطرق التجارية ، ومن بعدها نستعرض موقف المدن التجارية الايطالية (البندقية ، جنوة ، بيزا) من قرارات الحرمان البابوية والتي على الاغلب كانوا يخضعون لها ، او يحاولون التوسط في منع بضائع معينة والمتاجرة ببضائع اخرى ، وذلك لان هذه القرارات تعمل على ضرب مصالحهم التجارية ، وذكراهم هذه الاحداث التي كانت بين الطرفين ، كذلك استعرضنا المحاولات المبكرة للبابوية لتشجيع الاستكشافات الجغرافية لايجاد طريق آخر يوصلها للبضائع الشرقية وايجاد المملكة المسيحية الاسطورية (مملكة يوحنا) لتطويق المسلمين ومن ثم ضربهم لتحقيق اهدافهم الصليبية الحقودة ، فكان ارسال البابوات للجواسيس في بداية الامر وتشجيعهم ليستكشفوا المناطق ومن ثم الإتيان بالمعلومات التي تساعد على بداية حركة الاستكشافات وانجاحها فيما بعد .

كذلك في هذا البحث حاولنا ان نستعرض عامل اخر ومهم وهو القرصنة والقراصنة وخصوصاً في البحر الابيض المتوسط ، حيث كان القراصنة وبرعاية من ملوك الجزر والمدن الاوربية ولاسيما المطلة على البحر الابيض المتوسط يشجعونهم على السلب والنهب بل حتى القتل

للتجار العرب المسلمين في سبيل ضرب التجارة وطريقها وبالتالي لا يستفاد العرب المسلمين من الموارد الاقتصادية التي تدرها بسبب انعدام الأمن والأمان بالطرق وبالتالي تكديس البضائع وتلفها وخسارة ارباحها واثمانها .

وقد استندنا بحثنا على عدد من المصادر المهمة والمراجع التي أغنت البحث والتي سنتناولها ونذكرها في سياق البحث .

نشأة البابوية وتطورها :-

بعد تولي الإمبراطور قسطنطين الحكم (٣٠٦ – ٣٧٧م) عمل على الاعتراف بالدين المسيحي كديانة رسمية للبلاد ، وكذلك نقل عاصمة الإمبراطورية من روما القديمة في ايطاليا الى روما الجديدة والتي شيدها على ضفاف البسفور والتي سميت القسطنطينية [١] .

وهكذا وعلى اثر تقسيم الإمبراطورية الرومانية الى شرقية وغربية ونتيجة لضعف الإمبراطورية الغربية ، تم الفصل بين سلطان الدولة والكنيسة بعكس الامر في الإمبراطورية الشرقية حيث رسخ الإمبراطور قسطنطين مبدأ القيصرية البابوية ومن هنا زادت سلطة أسقف روما وتحول كرسيه الى بابوية لها السيادة العليا على الكنيسة في بلدان العالم المسيحي الغربي (روما – قرطاجة) ، وقد لعب البابا داماسوس الاول (٣٦٦ – ٣٨٤م) دوراً هاماً في ابراز مكانة كرسي روما الأسقفي (سيادة البابوية) ، وفي عهده تم ترجمة الإنجيل إلى اللغة اللاتينية ، ثم تابعه خلفه البابا سيري كيوس (٣٨٤ – ٣٩٩م) من تأليف المواسم البابوية [٢].

بعد ذلك لعب البابا ليو الاول (٤٤٠ – ٤٦١م) دوراً مهماً في تعزيز مكانة البابوية على كافة الكنائس المحلية في الغرب .

وفي سنة ٤٥٥ اصدر الإمبراطور فالشيان الثالث (٤٢٥ – ٤٥٥م) إمبراطور الغرب مرسوماً يقضي بخضوع جميع أساقفة الغرب للبابا .

وهناك عوامل اخرى ساعدت على تحقيق سيادة البابوية منها زيادة الالتجاء إلى أساقفة روما لاستئناف الاحكام القضائية التي اصدرتها المجامع الاقليمية أو صغار الأساقفة ، مما جعل أسقف روما يبدو بمثابة الحكم الاكبر أو السيد الاعلى [٣] .

ومن هذه العوامل المهمة ايضاً هو عظم ثروة أسقفية روما وتعاقب عدد من ذوي الشخصيات القوية على كرسيها الأسقفي منهم ليو الاول – كما ذكرنا قبل قليل – وغريغوري الاول ، هذا فضلاً عن سقوط الإمبراطورية في الغرب سنة ٤٧٦م وترك البابا وحيداً لا ينافسه سيد

سياسي في الغرب ، في الوقت الذي كان بعيداً عن سلطان امبراطور القسطنطينية ونفوذه في الشرق .

وهكذا سارت الامور حتى تحققت للبابوية سيادتها الفعلية في صورة عملية عالمية على عهد البابا غريغوري الاول أو العظيم (٥٩٠ – ٦٠٤) الذي دانت لنفوذه الكنيسة الغربية بكاملها وذلك بوصفه خليفة للقديس بطرس وكان له الفضل في تشجيع الرهبان في الاديرة على الخروج من عزلتهم والتبشير بالمسيحية [٤].

تبلور المذهب الكاثوليكي في روما منذ سنة ١٠٥٤ خلال عهد البابا (ليو التاسع) (١٠٤٩ – ١٠٥٥) وكانت الكنيسة في روما قد استمدت سلطاتها من خلال وراثتها للقديس بطرس الذي يعد اقرب حواريي السيد المسيح [٥].

ومن الباباوات الذين ساهموا بتعزيز سلطة ونفوذ البابوية البابا (غريغوري السابع) (١٠٧٣ – ١٠٨٥م) والذي حرص على استقلال نفوذ الكنيسة وعدم تدخل المؤسسات فيها وفي شؤونها [٦].

تمكنت الكنيسة من فرض نفوذها على الواقع السياسي من خلال شخصية البابا اوريان الثاني (١٠٨٨ – ١٠٩٩) والذي نادى بقيام الحملات الصليبية على المشرق الاسلامي في مؤتمر (كلير مونت) سنة ١٠٩٥ ، ولم يتورع البابا بتهديد ملوك وأباطرة اوربا بالحرمان الكنسي [٧].

وقد حاول عدد من الأباطرة الخروج على سيطرة البابوية ومنهم الإمبراطور فردريك باربا روسا (١١٢٢ – ايار ١١٩٠) أو ما يسمى فردريك الاول الذي حاول السيطرة ، لكن البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ – ١١٨١م) استطاع الانتصار عليه سنة ١١٧٦ .

أما البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦) فقد اعتبر جميع الملوك والأباطرة مجرد اتباع له .

بعد ذلك تمكن ملك فرنسا فيليب الوسيم (١٢٨٥ – ١٣١٤م) من تحقيق الانتصار على البابوية وسيطرتها الكاملة والمتمثلة بالبابا يونيفاس الثامن (١٢٩٤ – ١٣٠٣) لتبدأ مرحلة تدهور مكانته البابوية ، حيث تم نفي الباباوات خارج روما للفترة من (١٣٠٥ – ١٣٧٨م)[٨].

وبذلك ومن ذلك الوقت اصبحت البابوية لا تمثل الحاكم المطلق في السلطة ، بل أصبحت تحت سيطرة السلطة السياسية العليا .

ولكن لا ننسى إن البابوية ظلت لها تأثيرها على القرارات الدينية المطلقة وعلى القرارات السياسية وان كان تأثيرها ثانوي ولكن لا يخفى تأثيرها في تشجيع الجيوش في الغزو والاستكشاف والتوسع احياناً وان كانت ليس الحاكم المطلق .

القرارات البابوية لضرب التجارة :-

يعتبر تحرير مدينة عكا من قبل الامير اشرف بن خليل قلاوون ودخوله الى هذه المدينة في يوم الجمعة ١٨ آيار ١٢٩١ ، بعد قتل واسر الكثير من الصليبين بعد قرن كامل من سقوطها بعد الصليبين الاثر الواضح في كونها المعركة الفاصلة في الحروب الصليبية التي عرفها المشرق العربي [٩].

ومن ثم اثارة حقد البابوات من اجل الانتقام من الهزيمة الكبرى عن طريق ضرب طرق التجارة الشرقية والاستيلاء على هذا الطريق وعلى البضائع القادمة منها بسلسلة من البابوات الذين شجعوا اعلان الحرب على المسلمين [١٠].

وقد حاولت المدن الاوربية المطلة على البحر الابيض المتوسط (البندقية، بيزا، جنوة)، والتي كانت لها علاقات تجارية واسعة مع الدولة المملوكية ان تتقيد بقرارات البابوية من خلال منع التجارة مع تجار مصر وذلك نتيجة للتخوف الذي اصاب تجار المدن من قرارات الحرمان الكنسي التي كان يصدرها البابوات بحق كل من يعصي الاوامر الكنسية في تلك الفترة [١١].

وهكذا نلاحظ ان البضائع الآتية من الشرق قد تكدست في موانئ الاسكندرية نتيجة تسلط البابوية وقراراتهم المتعصبة اتجاه الشرق والعالم الاسلامي وكانت الفترة الممتدة من سنة (١٣٢٣ – ١٣٤٤م) قد شهدت شبه قطع للعلاقات وتوقف السفن التجارية بين الغرب وموانئ الاسكندرية ، لكن وبعد هذه الفترة بدء التجار الغربيين في الاعتراض على هذه القرارات التعسفية ولاسيما إن البضائع الشرقية كالتوابل والبهار لا يمكن الاستغناء عنها ، فلهذا اوضح التجار البنادقة بصورة خاصة للبابا كلمنت السادس (١٣٤٢ – ١٣٥٢م) في سنة ١٣٤٤ إن ذلك يؤدي إلى الاضرار باقتصاد المدن التجارية الغربية للبحر المتوسط ، فقلص البابا منع القرار على البضائع والمواد العسكرية والحربية فقط [١٢].

وقد كان للحقد البابوي الاثر الواضح على مر السنوات في محاولاتهم الجاهدة في سبيل قطع التجارة بين المماليك والمدن التجارية الاوربية الواقعة على البحر المتوسط ، فعملت إلى الرجوع إلى القرارات الكنيسية التي تناضل في سبيل قطع الإمدادات والبضائع الحربية من اجل

ضرب المجال العسكري وتطوره على المماليك ، وبهذا كان اثره على تجارة الهند الشرقية وازدهارها لا بل عملوا على منع شراء أي سلع قادمة عن طريق التجار المسلمين الموجودة حتى في اليونان.

كذلك تسببت الإصدارات البابوية من قبل البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ – ١٢٩٢) والذي عمل على قطع أي علاقة تجارية بين تجار مصر وتجار مدن البحر المتوسط [١٣]، وبعدها جاء البابا بونيفاس الحادي عشر (١٣٠٣ – ١٣٠٦م) والذي عمل على اصدار قرارات تعمل على إن التجار البنادقة بإمكانهم تزويد تجار مصر بالسلع التي هي غير شاملة بقرارات المنع البابوية السابقة مثل المنسوجات مقابل الفلفل والذي لا يستغني عنه الاوربيون في تلك الفترة[١٤].

لكن البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥ – ١٣١٤م) اصدر قرار بمنع ارسال كل السلع سواء كانت تجارية أو عسكرية ومن يخالف ذلك يتعرض لأشد أنواع العقوبة إلا وهي الحرمان الكنسي في تلك الفترة [١٥].

كذلك امر البابا يوحنا الثاني والعشرون (١٣١٦ – ١٣٣٤م) ملك قبرص هيوا الرابع (١٣٠١ – ١٣٢٥) سنة ١٣٢٣ ان يعمل على قطع الطرق التجارية في البحر المتوسط امام أي سفن تحاول ان تمارس التجارة مع التجار المصريين والدولة المملوكية تلك الفترة وذلك بإعطائهم حق القرصنة على هذه السفن [١٦].

موقف المدن الايطالية من قرارات البابوية :-

كان موقف التجار الايطاليين والمتمثل بالمدن التجارية الاوربية الواقعة على البحر المتوسط (البندقية ، جنوة ، بيزا) يتميز بعدم الثبات على مبدأ واحد فمرة نجد التجار الايطاليين يرضخون لقرارات البابوية ومرة يحاولون التملص من هذه القرارات بشتى الوسائل وذلك نظراً لحسب مصالحهم التجارية اولاً ومن بعدها يأتي ولائهم للكنيسة والمتمثلة بالبابوية .

بعد سقوط مدينة عكا سنة ١٢٩١م ، كانت جنوة احد المدن التجارية الايطالية التي تقيدت بقرارات البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ – ١٢٩٢م) بقطع العلاقات التجارية مع مصر ، وعملت على فرض الغرامات على التجار الذين ارسلوا بضائع إلى الاسكندرية وفي نفس السنة صادرت سلطات جنوة سفينة لمدينة بيتزا كانت عائدة من الاسكندرية ومحملة بالتوابل وطبقت قرارات الكنيسة والبابوية عليها [١٧]، إلا إن جنوة عدلت عن انصياعها لأوامر البابا بعد ذلك سنة ١٣٠٤، فحدثت عدة مناوشات بينها وبين السلطات المكلفة من قبل البابوية [١٨]، وكانت لقرارات البابوية التعسفية اثر على الجالية الجنوية في الاسكندرية في حرية ممارستهم التجارة وضرب مصالحهم الاقتصادية .

اما البندقية ففي البداية اضطرت الى الخضوع إلى قرارات البابوية ، فاصدرت سنة ١٣٢٣ قراراً بوقف التجارة بينها وبين التجار في دولة المماليك وظلت تلك المقاطعة من سنة ١٣٢٣ حتى سنة ١٣٤٤ (١٩).

ومع ذلك وبسبب مصالحها الاقتصادية عملت على التحايل على قرارات البابوية وذلك بإرسال البضائع إلى مصر عن طريق قبرص وكريت واسيا الصغرى ، وبذلت قصارى جهدها في سبيل إن تعاود العلاقات التجارية بينها وبين الدولة المملوكية والتجار العرب المسلمين ، واستطاعت بعد مباحثات ومداولات مع البابا كلمنت السادس إن يصدر قراراً بالسماح للبندقية بإرسال سفنها إلى الاسكندرية في سنة ١٣٤٤ على شرط ان تقوم بنقل البضائع المسموح بها فقط ، ومن اجل ذلك دفعت البندقية مبالغ كبيرة وطائلة للبابوية (٢٠).

والملاحظ إن البابوية كانت تستغل الموقف بحصولها على مبالغ طائلة لقاء اصدارها التراخيص في التعامل مع دولة المماليك والمتمثلين بتجارها (٢١)، وبالرغم من محاولات البابوية في منع التبادلات التجارية مع تجار الدولة المملوكية في منع تصدير الحديد وخشب السفن والاسلحة وأوقفت التعامل التجاري . لكنها لم تستطع ان تحقق النجاح في قراراتها بصورة دائمة وفي كل الاوقات ، وذلك لان الرغبة في الربح لدى التجار وصعوبة الطريق البري الآسيوي الغير آمن ، ادت إلى رجوع التجار الايطاليين في التعامل مع تجار الاسكندرية وموانئهم الآمنة ، وقد شهد النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي تساهل من قبل الباباوات في التعاملات التجارية مع التجار العرب المسلمين وعملت على اصدار بعض التراخيص في سبيل هذه الاغراض والمصالح ، لكن هذه الفترة تخللت بمجئ البابا اوريان الخامس ودعمه لملك قبرص بطرس الاول الذي عمل على ادخال الدول الاوربية للقيام بحملة على مصر سنة ١٣٦٥ ، أدت إلى اضطراب الاوضاع التجارية بين تجار المدن الايطالية والتجار العرب المسلمين (٢٢).

اثر البابوية في بداية حركة الاستكشافات الجغرافية :-

أثرت البابوية وبصورة واضحة ومنذ الربع الاخير في القرن الحادي عشر في تشجيع محاربة المسلمين ولاسيما في غرب اوربا ، فكانت الحروب التي شنت على المسلمين من قبل الفونسو السادس ملك قشتالة (١٠٦٥ – ١١٠٩) الذي واصل ضغطه على المسلمين واستطاع الاستيلاء على طليطلة عام ١٠٨٥ (٢٣)، وكانت كلها مباركة من البابوية ، فكان نشاط البابا اوريان الثاني لتنفيذ مشروع الحملات الصليبية ضد المسلمين حيث دعا إلى الحرب الدينية على المسلمين في مجمع (كلير مونت) ١٠٩٥ – كما ذكرنا سابقاً – تحت ذريعة تخليص الاراضي

المقدسة من سيطرة المسلمين [٢٤]، فكانت محاولات البرتغاليين ، خلال القرن الخامس عشر للكشف عن الطريق إلى الشرق تتويجاً لسلسلة الحروب الصليبية التي ابتدأت اواخر القرن الحادي عشر [٢٥].

فكانت الاستكشافات البرتغالية احد غاياتها الرئيسية هو القضاء على الوجود الاسلامي في الشرق والمحيط الهندي وطبعاً كانت بمباركة من بابوية روما [٢٦].

وتأكيداً للروح الصليبية لرحلات البرتغاليين الجغرافية فقد امر الباباوات الذين تعاقبوا على الحكم بان ترسم صورة الصليب على اشرعة السفن وعلى ملابس البحارة والمشتركين في هذه الرحلات كما كان يعلق في مقدمة السفينة علماً رسم عليه صليب ضخم [٢٧].

وكان قائد احد هذه الحملات المهمة هنري الملاح (١٣١٤ – ١٤٦٠م) والذي كان رئيساً لما يعرف بـ (اخوية المسيح Oreder of Christ) الرهبانية العسكرية سنة ١٤٢٠ وسخرها لمجهوده في خدمة الاستكشافات الجغرافية ، كما رسم شارة الصليب الاحمر على اشرعة سفنه التي اطلق على كل واحدة منها اسم احد القديسين [٢٨].

وقد عمل البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ – ١٤٥٥م) في سنة ١٤٥٤ على إرسال ما يسمى (خطة الهند) إلى ملك البرتغال وكانت تهدف إلى توجيه ضربات ماحقة للمسلمين ، ونشر المسيحية والكاثوليكية في المناطق التي يصل اليها البرتغاليون [٢٩].

وبعد وفاة ملك البرتغال افونسو الخامس (١٤٣٢ – ١٤٨١م) ، تولى العرش من بعده الملك يوحنا الثاني ، الذي ارسل بعثتين سنة ١٤٨٧ ، الاولى بحرية بقيادة بارثلميودياز والثانية جاسوسية استخبارتية مكونة من رجلين هما جون بيرس دي كوفيلها وافونسو دي بافيا ، اللذين يجيدان اللغة العربية ، وقد ابحر هذان الجاسوسان من البرتغال بعد إن تزودوا بالمعلومات والخرائط المتوفرة لدى الملك البرتغالي لتسهيل مهمتهما ، والتي هي جمع اكبر قدر من المعلومات عن افضل الطرق الموصلة إلى الهند ، والاتصال بما كانت تدعى مملكة القديس يوحنا والتي كان الاوربيون يعتقدون بوجودها في الحبشة [٣٠]، ويتناقلون اخبار قوة حاكمها ويسعون لمحالفتهم لعلهم يتخذونها قاعدة صليبية في قلب افريقيا. واصل الجاسوسان سفرهما إلى رودس ثم إلى الاسكندرية فالقاهرة ، وتوجها بعدها الى عدن حيث افترقا ، فذهب كولهام الى الهند وبافيا الى الحبشة [٣١]، واستطاع دي كوفيلها وبعد انفصاله عن افونسو دي بافيا في رحلتهم إن يجمع المعلومات المفيدة جداً عن التجارة الشرقية ودونها في تقريره عن نتائج رحلته حيث وصل هرمز ، ومنها بواسطة إحدى السفن المحلية زار بعض موانئ غرب الهند ولاسيما كوا وكاليكوت ، وانتقل إلى موانئ شرق

افريقيا فزار سفالة وانتقل بعدها إلى القاهرة ، والتقى بشخص يدعى أبراهام الذي كان مبعوثاً من قبل الملك البرتغالي ، وابلغه بوفاة صديقه دي بافيا بالطريق ، فاصطحبه دي كوفيلها معه الى الحبشة ، وعاد أبراهام بالهدايا إلى الملك ، فيما قرر كوفيلها الاستقرار نهائياً في الحبشة ، ومات بعدها بثلاثين عاماً (٣٢).

أما الرحلة التي قادها بارثلميودياز ، فقد كانت ناجحة جداً ، حيث استطاع بعد حصوله على المعلومات عن طريق بحري مباشر إلى الشرق من الوصول إلى الطرف الجنوبي لقارة افريقيا سنة ١٤٨٧ (٣٣).

فكانت هذه الرحلات البداية والتمهيد للرحلة التاريخية التي قام بها فاسكو دي غاما من بعد ذلك سنة ١٤٩٧ إلى الشرق واكتشف فيها الطريق الجديد لـ (رأس الرجاء الصالح) للوصول بعد ذلك إلى الهند (٣٤).

وهنا يلاحظ إن الكشوفات الجغرافية قامت بتحريض من الباباوات فأسبغت عليها استمراراً وتجسيداً للحركة المسيحية الصليبية في افكارها ، فيذكر ابو مخرمة في حديثه عن البرتغاليين ((... الحركة البرتغالية في حقيقتها استمرار وتجسيد للحركة الصليبية في جميع افكارها ...)) (٣٥).

وهكذا ونتيجة الدور الذي لعبه الباباوات في سبيل ضرب طريق تجارة الشرق وشل حركته التجارية ، جراء الروح الصليبية وروح التعصب الديني ، ومحاولة السيطرة على الطرق التجارية للتجارة الشرقية ، فبدأت مرحلة جديدة والمتمثلة في حركات الكشوفات الجغرافية والتي انتهت باكتشاف (رأس الرجاء الصالح) ١٤٩٨ ، وكان بداية النهاية لضرب وشل الحركة التجارية لطرق وتجارة الشرق ومن ثم نهايتها المأساوية فيما بعد (٣٦).

القرصنة وأثرها على التجارة الشرقية :-

كان للقرصنة والقراصنة الاثر الواضح في قطع الطرق التجارية للسفن المحملة بالبضائع الشرقية ولاسيما في منطقة البحر الابيض المتوسط وذلك لان قبل سنة ١٤٩٨ أي سنة اكتشاف (رأس الرجاء الصالح) من قبل البرتغاليين وظهور القرصنة بعد ذلك في منطقة المحيط الهندي والبحر الاحمر والتي كانتا تتمتعان بالامان والاستقرار قبل ذلك ، ونحن هنا نحاول ان نستعرض اهم الغارات التي شنها القراصنة في سبيل السيطرة وقطع الطرق على السفن المحملة بالبضائع الشرقية .

فكان ملك قبرص نفسه بطرس ولوزنيان (بطرس الثاني) (١٣٦٩ – ١٣٨٢م) يرسل القراصنة في سبيل قطع الطرق على السفن التي تنقل البضائع من والى موانئ الاسكندرية الى

مدن البندقية وجنوة وبيزا ، ولهذا طلب السلطان المملوكي الاشرف ناصر الدين شعبان بن حسين (١٣٦٣ – ١٣٧٦م) الصلح من القبارصة اشد اعدائهم في سبيل حماية السفن التجارية من القرصنة الاوربية وقد عادت العلاقات التجارية بين مصر المملوكية واوربا بعد هذا الصلح ولاسيما بعد إن خففت البابوية قرارات الحرمان على التجارة مع مصر في تلك الفترة [٣٧].

ولكن غارات القراصنة استمرت طوال العصر المملوكي ففي سنة ١٣٧٨ هاجمت عشرة مراكب جنوية ميناء طرابلس ، فتصدى لهم الامير يلبغا الناصري نائب طرابلس وقتل الكثير منهم وفر الباقون الى المراكب واقلعوا هاربين [٣٨]، وفي سنة ١٣٨٣ تكرر هجومهم على بيروت فتصدى لهم الامير اينال اتابك العسكر بالشام وقتل كثير منهم ، كما استولى على ستة عشر مركباً لهم [٣٩].

وعندما هاجمت طائفة من الفرنج ميناء دمياط في تشرين الاول ١٣٨٣ امر السلطان الظاهر سيف الدين برقوق (١٣٨٢ – ١٣٨٨م) بخروج الجند لحفظ الثغور ، وعمل على تعزيز حامية الاسكندرية [٤٠]، كذلك هاجم القراصنة سفينة للتجار العرب المسلمين كانت متوجهة إلى الاسكندرية في سنة ١٤٠٢ ، واستولى عليها القراصنة ، وكان عليها مئة وخمسون مسلماً باعها القراصنة الى حاكم جزيرة تاكوس التي كانت تابعة الى البندقية ، وطلب السلطان المملوكي الناصر فرج بن برقوق (١٣٩٨ – ١٤٠٥م) مساعدة القنصل البندقي لفك اسر المسلمين ، لكن القنصل نفى ان تكون لهذه الجزيرة أي سيطرة عليها او تبعية من قبل ، فكان لهذا الاثر على السلطان فرج بن برقوق الذي امر بحجز السفن البندقية المحملة بالبضائع الشرقية وامر بعدم مغادرتها ، فادى هذا الى اخبار التجار البنادقة والقنصل البندقي الى التوسط لدى حاكم جزيرة تاكوس وعلى اثر هذه الوساطة تم فداء الاسرى بمبلغ من المال الذي كان من بينهم ثمانية من تجار التوابل والبضائع الشرقية [٤١].

وظلت هجمات القراصنة مستمرة في البحر الابيض المتوسط ، ففي سنة ١٤٠٣ جمع حاكم جنوة قواته وقوات جزر قبرص ورودس وعدد من القراصنة للهجوم على الاسكندرية ، ولكن السلطان الناصر فرج بن برقوق الذي جهز العساكر بقيادة الامير يلبغا الناصري ، وارسلهم الى ميناء الاسكندرية [٤٢].

وفي سنة ١٤٢١ اصدر السلطان المملوكي الظاهر سيف الدين ططر (١٤٢١– ١٤٢١م) مرسوماً بمدة بقاء جميع الطوائف الفرنجة ومحددة باربعة اشهر فقط ، وذلك بسبب حذر المماليك من تلك الطوائف من امداد القراصنة بالاخبار واخبارهم باوقات وصول السفن المحملة بتجارة

التوابل الشرقية [٤٣]، اما في عهد السلطان الاشرف برسباي (١٤٢٢ – ١٤٣٧م) هاجم الكتلان الاسكندرية واخذوا مركباً مليئاً بالتوابل والبهار فيه بضائع تقدر بمائة الف دينار [٤٤].

وحاول السلطان الاشرف برسباي العمل على حماية السفن من هجمات القراصنة على انشاء وظيفة مراقب السواحل وعزز حاميات دمياط ورشيد والاسكندرية ، وبنى برجاً للمراقبة، وبنى برج السرايا بطرابلس ، واشرف بنفسه على بناء سفن حربية ضد القراصنة [٤٥].

اما قراصنة مملكة ارغوان فقاموا في تموز ١٤٢٩ بالهجوم على خمسة مراكب كانت راسية على سواحل ميناء الاسكندرية ، فجاءت نجدة عسكرية فانسحبوا منها [٤٦]، وفي سنة ١٤٣٢ اغارت اراغون على طرابلس فنهبت سفينتين من التجار والبضائع ، مما ادى الى دفع السلطان الاشرف برسباي الى مصادرة اموال الكتلانين في الاسكندرية وبلاد الشام ، مما ادى الى مهاجمة القراصنة الكتلان طرابلس سنة ١٤٣٣ ، واستولوا على تسعة سفن مملوءة بالتوابل والبهار وبضائع اخرى ، وفي نفس السنة استولوا على خمسة مراكب في بيروت محملة بالبضائع [٤٧].

كذلك عمل قراصنة جزيرة رودس الى الهجوم على ميناء رشيد الساحلي في حملات ضد جزيرة رودس في سنوات (١٤٤٠ – ١٤٤٣ – ١٤٤٤) على التوالي في سبيل ايقاف اعمال القراصنة وضررهم المستمر على التجارة .

وظلت اعمال القرصنة مستمرة ومتواصلة على مر السنين لضرب التجارة ومصادرة الاموال ، ففي اذار سنة ١٥٠٩ هاجم قراصنة جزيرة رودس ميناء الطينة القريب من ميناء مدينة الاسكندرية ، فتصدى لهم الامير تمرباي الهندي الذي تمكن من الاستيلاء على مراكبهم واسرهم وارسالهم الى السلطان المملوكي قانصوة الغوري (١٥٠١ – ١٥١٦م) في القاهرة [٤٨].

الخاتمة :-

يتبين مما تقدم ذكره إن للبابوات ومركز البابوية الهيبة والسلطة والتأثير في الحكم الديني والسياسي ولاسيما منذ بداية تأسيس كرسي للبابوية في روما ، ولاسيما بعد تقسيم الامبراطورية الرومانية وجعل القسطنطينية قاعدة لحكم الامبراطور لتظل روما تعاني من حالة الفراغ السياسي للحاكم ، والذي شغله وسيطر عليه منصب البابوية ، وظل الحال حتى القرن الثالث عشر والرابع عشر تؤثر القرارات البابوية على نواحي عديدة من الحياة ، وظهر دورها في تشجيعها قرارات الحرمان عندما تحاول كسر الاقتصاد لدولة المماليك ، وتشجيع الحملات الصليبية ودور البابوات في بدايات الحركات للكشوفات الجغرافية وتشجيعها .

كذلك كان للقرصنة والقراصنة دورهم الواضح في شل حركة التجارة في البحر الابيض المتوسط احياناً والسلب والنهب والقتل من اجل ضرب الطرق التجارية ومحاولة الاستفادة الاقتصادية من تلك الهجومات .

وكان لهذا الدورين الاثر الواضح والمهم في تاريخ حركة التجارة الشرقية وطرقها واحداثها ، واهم المراحل التي مرت بها عبر التاريخ .

الهوامش :

(١) عبد الرزاق مطلك فهد ، اوربا في العصور الوسطى واثر الحضارة العربية على اوربا ، بغداد ، ٢٠٠٢ ، ص٢٠ .

(٢) شارل جينيز ، المسيحية نشأتها وتطورها ، ترجمة : عبد الحليم محمود ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨١ ، ص٢١٦ ، السيد الباز العريني ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص٥٢ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص١٤٧.

(٤)كريستوفر دوس ، تكوين اوربا ، ترجمة : محمد مصطفى زيادة ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص٢٦٤ .

(٥) اسماعيل نوري الربيعي ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، دار الحامد للنشر ، عمان ، ٢٠٠٢ ، ص١٣٥ .

(٦) عبد القادر احمد اليوسف ، العصور الوسطى الاوربية ، المكتبة العصرية ، صيدا ، ١٩٦٧ ، ص٥٨ .

(٧) اسماعيل نوري الربيعي ، المصدر السابق ، ص١٣٦ ، رفيق التميمي ، الحروب الصليبية ، القدس ، ١٩٤٥ ، ص٢٦ .

(٨) جوزيف نسيم يوسف ، تاريخ العصور الوسطى الاوربية وحضارتها ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص١٧٠ .

(٩) عصام شبارو ، تاريخ المشرق العربي الاسلامي ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص٢٣٥ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص٢٣٦ .

(١١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى ، ج١ ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص٣٥ .

(١٢) شارل ديل ، البندقية جمهورية ارستقراطية ، ترجمة : احمد عزت عبد الكريم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٤ ، ص٢٢١ .

(١٣) Heyde , W . Histore du Commerce du lerantau Moyen age , voll 11 , Leipzig , p. 25 .

(١٤) صبحي لبيب ، سياسة مصر التجارية ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢ ، عدد ٧ ، ١٩٥٢ ، ص١٢٢ .

(١٥) Heyde , w . op . Cit , p29 .

(١٦) I bid , p30.

(١٧) Heyde . op . Cit , p34

(١٨) سمير الخادم ، الشرق الاسلامي ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص٤٣٢ .

(١٩) Deeping , Historie du commerce , entrele levante , Europe , Paris , II , 1830 , p. 195 .

(٢٠) Heyde , op , Cit , p. 45 .

(٢١) Ibid , p .46 .

(٢٢) عزيز سوريال عطية ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة : فيليب صابر ، الهيئة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص٩٠ .

(٢٣) سعيد عبد الفتاح عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ج١ ، ط١٠ ، مصر ، ١٩٨٦ ، ص٤٣٨ .

(٢٤) ستيفن رينسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : السيد الباز العريني ، ج١ ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص١٥٢ .

(٢٥) رفيق التميمي ، المصدر السابق ، ص٢٦ .

(٢٦) عبد الحميد البطريق ، التاريخ الاوربي الحديث ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص٤١ .

(٢٧) حسن صبحي ، التاريخ الاوربي ، ج١ ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ ، ص٦٨ .

(٢٨) علي غنام ، البرتغاليون والدين في غزوهم للشرق ، الحلقة الثانية ، مجلة الخليج العربي ، السنة ١٦ ، مجلد ٢٠ ، عدد ٣ ، ١٩٨٨ ، ص١٨ .

(٢٩) محمد حميد السلمان ، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج (١٥٠٧ – ١٥٢٥) ، دبي ، ٢٠٠٠ ، ص٣٢ .

(٣٠) Serjeant . R . B. The portuguese of the south Arobian Coast , Oxford University , 1963 , p .40 .

(٣١) قطب الدين النهروالي ، البرق اليماني في الفتح العثماني ، تحقيق ، احمد جاسر ، الرياض ، ١٩٦٧ ، ص١٨ ، بشير حمود كاظم ، حركة الكشوف البرتغالية واهدافها ، مجلة الوثيقة ، عدد ١٢ ، سنة ٦ ، ١٩٨٨ ، ص١٥ .

(٣٢) لوريمر ، ج ، ج ، دليل الخليج العربي ، القسم التاريخي ، ج١ ، قطر ، ١٩٦٧ ، ص١١ .

(٣٣) بشير حمود كاظم ، المصدر السابق ، ص١٥ .

(٣٤) النهروالي ، المصدر السابق ، ص١٨ .

(٣٥) ابو مخرمة ، البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه ، تحقيق : د. محمد عبد العال احمد ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص٦٨ .

(٣٦) ينظر : محمد بن احمد بن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق : محمد مصطفى ، ج٤ ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص١٤٢ .

(٣٧) احمد عبد الفتاح ابراهيم ، قبرص لؤلؤة شرق البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص٢٥ ، ابراهيم المليفي ، قبرص الهوية المنشقة ، مجلة العربي ، عدد ٦١٤ ، سنة ٢٠١٠ ، ص٥٧ .

(٣٨) احمد بن علي المقريزي ، السلوك في معرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة ، ج٣ ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص١١٤ .

(٣٩) حكيم امين عبد السيد ، قيام دولة المماليك الثانية ، المكتبة العربية ، مصر ، ١٩٦٦ ، ص١٤٩ .

(٤٠) حكيم امين السيد ، المصدر السابق ، ص١٥٠ .

(٤١) المصدر نفسه ، ص١٥٢ .

(٤٢) المصدر نفسه ، ص١٥٢ .

(٤٣) احمد دراج ، المماليك والافرنج ، القاهرة ، ١٩٦ ، ص٢٨ .

(٤٤) المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ص٣٥٢ .

(٤٥) المصدر نفسه ، ص٣٦٥ .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص٣٩٢ .

(٤٧) احمد دراج ، المصدر السابق ، ص٤٥ .

(٤٨) محمد بن احمد بن اياس ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٤٦ .

المصادر :-

١- ابو مخرمة ، البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه ، تحقيق : د. محمد عبد العال احمد ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

٢- احمد بن علي المقريزي ، السلوك في معرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة، ج٣ ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٣- قطب الدين النهروالي ، البرق اليماني في الفتح العثماني ، تحقيق : احمد جاسر ، الرياض، ١٩٦٧ .
٤- محمد بن احمد بن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق : محمد مصطفى ، ج٤، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

الكتب :-

١- احمد دراج ، المماليك والافرنج ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
٢- احمد عبد الفتاح ابراهيم ، قبرص لؤلؤة شرق البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٦١ .
٣- اسماعيل نوري الربيعي، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، دار الحامد ، عمان ، ٢٠٠٢,
٤- السيد الباز العريني ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٨ .
٥- حسن صبحي ، التاريخ الاوربي ، ج١ ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ .
٦- حكيم امين السيد ، قيام دولة المماليك الثانية ، المكتبة العربية ، مصر ، ١٩٦٦ .
٧- رفيق التميمي ، الحروب الصليبية ، القدس ، ١٩٤٥ .
٨- ستيفن رينسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : السيد الباز العريني ، ج١ ، بيروت ، ١٩٦٧ .
٩- سعيد عبد الفتاح عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ج١ ، ط١٠ ، مصر ، ١٩٨٦ .
١٠- ـــ ، الحركة الصليبية صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى ، ج١ ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
١١- ـــ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٢ .
١٢- سمير الخادم ، الشرق الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
١٣- شارل جينيز ، المسيحية نشاتها وتطورها ، ترجمة : عبد الحليم محمود ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨١ .
١٤- شارل ديل ، البندقية جمهورية ارستقراطية ، ترجمة : احمد عزت عبد الكريم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٤ .

١٥- عبد القادر احمد اليوسف ، العصور الوسطى الاوربية ، المكتبة العصرية ، صيدا ، ١٩٦٧ .

١٦- عبد الحميد البطريق ، التاريخ الاوربي الحديث ، دار النهضة العربية ، بيروت، ١٩٧٧,

١٧- عبد الرزاق مطلك فهد ، اوربا في العصور الوسطى واثر الحضارة العربية على اوربا ، بغداد ، ٢٠٠٢ .

١٨- عصام شبارو ، تاريخ المشرق العربي الاسلامي ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ١٩٩٩ .

١٩- عزيز سوريال عطية ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة : فيليب صابر ، الهيئة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٢٠- كريستوفر دوس ، تكوين اوربا ، ترجمة : محمد مصطفى زيادة ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

٢١- لوريمر ، ج ، ج ، دليل الخليج العربي ، القسم التاريخي ، ح١ ، قطر ، ١٩٦٧ .

٢٢- محمد حميد السلمان ، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج (١٥٠٧ – ١٥٢٥)، دبي، ٢٠٠٠ .

الكتب الاجنبية :-

1- Deeping , Historie du commerce , entrele Levante , Europe , Paris , II , 1830 .

2- Heyde , W. Histore du Commerce du levantau Moyen age , Vol 11 , Leipzig , p .25 .

3- Serjeant , R. B. The Portuguese of the south Arobian Coast , Oxford University , 1963 .

البحوث :-

١- ابراهيم المليفي ، قبرص الهوية المنشقة ، مجلة العربي ، عدد ٦١٤ ، سنة ٢٠١٠ .

٢- بشير حمود كاظم ، حركة الكشوف البرتغالية واهدافها ، مجلة الوثيقة ، عدد ١٢ ، سنة ٦ ، ١٩٨٨ .

٣- صبحي لبيب ، سياسة مصر التجارية ، المجلة التاريخية ، مجلد ٢ ، عدد ٧ ، ١٩٥٢,
٤- علي غنام ، البرتغاليون والدين في غزوهم للشرق ، الحلقة الثانية ، مجلة الخليج العربي ، السنة ١٦ ، مجلد ٢٠ ، عدد ٣ ، ١٩٨٨ .